شعريّة الفضاء:"الصّحراء" في رواية "رجالي" لمليكة مقدم

The poetic of Space : « The Desert » in Malika Mokeddem's » Novel « my lovers » Translated by Nahla Baydoun

د/فاطمة بن هوادية*

جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف (الجزائر)

fatimabelhouadia@yahoo.com

تاريخ الارسال: 2022/05/04 تاريخ القبول : 2022/05/20 تاريخ النشر: 2022/06/16

ملخص:

يعدّ الفضاء الرّوائي من أهمّ العناصر المكوّنة للخطاب السّردي، وأحد العناصر المؤثّرة في السّرد، وعبر هذه الدّراسة لـ"شعريّة الفضاء" سنعثر على الصحراء كفضاء دلالي وجمالي، إذ يرتبط بعدّة أبعاد إنسانيّة وجماليّة: البعد النفسي(التمرّد)، كما يرتبط بفضاء آخر وهو الفضاء الأجنبي (البحر)، الذي يمثّل قيما ثقافية وحضاريّة تتمثل في (الآخر)، وحينما تكتشف الكاتبة ذاتها وتتصالح معها، تتناغم"الصّحراء" مع "البحر" تناغماً إنسانيًا.

الكلمات المفتاحية: شعريّة، الفضاء، الصحراء، رواية، مليكة مقدم، "رجالي".

Abstract:

The narrative space is one of the most important elements of the narrative discourse and one of the most influential component in narration.This study,therefore,which deals with the « Poetry of Space » explores « The desert » as a symbolic and aesthetic space.It is linked to several human and aesthetic dimonsions :such as the psychological dimention and rebellion.It is also linked to « the sea »,that represents cultural and civilizational val.0us of the « Other »,When the author discovers and reconciles with herslef, the « desert » and the « sea » become humanly harmonized.

Keywords : Apoetry, espace, the desert, novel, Malika Mokeddem, My lovers.

مقدمة:

في رحلة البحث عن الذّات؛ وعبر الكتابة وبين عالمين يحاول كلّ واحد منهما إقصاء الآخر.تنقف"مليكة مقدم"؛ "بين الصحراء" و"فرنسا" لتروي بكل أشكال الجرح، قصص الطّفولة الحزينة المثقلة بالحرمان؛ وأن تسرد الحكاية نفسها؛ مراراً وتكراراً؛ خلف شخصياتها النّسوية "سلطانة وشمسة وغيرهن؛ من خلال عدة روايات كالممنوعة « L'interdite » سنة 1993؛ و"الراغبة" « La désirante »سنة و"أدين بكل شيء لنسيانك" « Je dois tout à tou oubli » سنة 2009، و"لحظات من الأرق" 2003« La transe des insoumis » .

* المؤلف المرسل

ومن هنا تتحول الكتابة إلى وسيلة للتعويض، متجاوزة الألم، تقول الكاتبة «الكتابة هي ترحال الفكر في صحراء الحرمان على دروب ضيقة لنوستالجيا لا مفر منها؛ على آثار طفولة لم أعيشها»[1*] تعويض عن طفولة قاسية، وعن علاقات تصادمية مع العائلة؛ لذلك يتردد موضوع "الفقد" أو "اليتم" كثيراً في روايتها؛ بل تذهب إلى حد قولها:«من السعادة، ومن الصحّي أن تولد يتيمة؛ وأن بطلة رواية « La désirante» ولدت "يتيمة" وهربت من الصحراء لتربيها الراهبات»؛ فهذا "اليتم" هو محاولة "مليكة مقدم" لمحو جذورها تماماً من العائلة!

كما تعدّ الكتابة وسيلة للتحرر من أغلال الماضي؛ كانت القراءات المتنوعة في مختلف الكتب في سن مبكرة، تلك التي تعود إلى المتوسطة والثائرية جسرها الآخر نحو الانعتاق «فالقراءة وحدها سمحت لها بالهروب من هذا العالم المقيد. والكتب سمحت لها بالترحال في فكرها. القراءة كانت حريتها حتى البكالوريا»[2].

لقد عرفت"مليكة مقدم" التمرد منذ طفولتها فتمردت على الأعراف والتقاليد، لذلك تبدو عناوين رواياتها "المتمردة" "الممنوعة" و"رجالي" استفزازية للغاية؛ إذ تعلن تحدّيها للقارئ والمجتمع الجزائري من البداية وحينما تقرأ ما تكتبه"مليكة مقدم" لابد أن يطل شبح "الصحراء" بين سطورها ليصبح هاجسها الأبدي الذي يطاردها أينما حلت أو تلك اللعنة التي تسكنها إلى الأبد «.... تتأرجح السنوات، تتكدّس في الحاضر داخل زوابع الضياء.يكاد قلبي يترنح.لا تبعد واحتي إلا بكيلومترات قليلة. قصر من تراب، قلب متشابك، محاط بالكثبان والنخيل. أرى نفسي وأنا مراهقة، أغادر المنطقة لألتحق بداخلية إحدى ثانويات وهران، أتذكر ظروف الذهاب الصعبة، بعد ذلك تكسر الزمان تحت ضغط الهروب، القطيعة، الغياب، المنفى، ماذا بقي بعد هذه الرحلة؟ ركام من المخاوف، المتاع المحتوم لكل مترحل، ولكن الزمان حينما يقترن بالمسافة، يعلم ترويض أسوأ الهواجس»[3].

فرواية "رجالي" قبل أن تكون حكاية عشق لامرأة هي سيرة حياة الكاتبة نفسها بل هي قبل كل شيء حكاية مكان! وبعيدا عن التساؤلات المطروحة حول السيرة الذاتية؛ وهل هي رواية أم لا؟ وما هي مميزاتها؟.

فإنّ السيرة الذّاتية، قد انتشرت تحت مسميات عديدة منها: سيرة ذاتية روائية، ورواية السيرة الذاتية، ورواية أو توبيوغرافية، وغيرها من المسميات؛ فالجدير بالذكر إن السيرة الذاتية ترتبط ارتباطاً كبيراً بالرواية من حيث:

1-وجود عنصر التخيل (وهو عنصر هام لا يرتبط بالرواية وحدها وإنما يرتبط بالإبداع عموما).

2-وجود الذات الساردة وتطابقها مع الكاتب .

3-وجود عناصر أخرى تشكل مكونات الخطاب السردي(الزماني-الفضاء، الشخصية...)

غير أنّ "السيرة الذاتية" كجنس روائي تتميز بهيمنة الذات الساردة أو ا(لأنا) في العمل السردي وطغيان الذّاكرة وكثافة اللاشعور واستبطان الذات تجعلها من السّيرة الذاتية أقرب إلى التحليل النفسي[4].

ثمّ إنّ هناك علاقة قائمة بين النص وصاحبه من حيث المرجعية؛ فالنص ليس مجرد شبكة من العلاقات اللسانية؛ إنّما يمثل مجموعة من الأنساق المعرفية والثقافية التي تجسدها اللغة، وتبقى اللغة في نهاية الأمر محكومة

بالانتقاء؛ وهو ما نطلق عليه"الأسلوب"، والأسلوب خاصية فردية ترتبط بعبقرية الكاتب وتحمل ثقافته "ورؤياه" للعالم[5].

إنّ السّيرة الذّاتية جنس روائي مكتمل العناصر، يقفز عبر الزمن إلى الخلق عن طريق الاسترجاع السردي « Flash-back » وتدفق الذاكرة؛ فما علاقة "المكان" بهذه الرواية؟ ألأنه مجرد مُكوِّن من إحدى مُكوّنات السرد؟ أم لأن للمكان حضورا جمالياً داخل الرواية؟ وإذا كان كذلك؛ فما هي أبعاده؟

1-البعد النفسي للمكان:

الصحراء مقترنة بقساوة الطفولة منذ الوهلة الأولى نشعر بقسوة المكان؛ "فالصحراء" بالنسبة إلى "مليكة مقدم" قاحلة وجرداء لأنها ترتبط بتربية قاسية تتميز بالقهر الاجتماعي؛ في مجتمع ذكوري يقصي النساء؛ لذلك «فالحفر في المكان هو حفر في عمق الذات؛ فقلما نعثر على شكل مكان روائي يخلو عن محاولات الكاتب الغوص في الأعماق»[6]؛ من هنا تتجلى تلك العلاقة الحميمة التي تربط الزمان بالمكان؛ وخاصة "الطفولة" في روايات "مليكة مقدم" وهي طفولة ممزوجة بذكرياتها المريرة بين أفراد أسرتها «في الرابعة أو الخامسة من العمر، شعرت بأن الكلام الذي أسمعه من حولي يعتدي عليّ، فهمت منذ ذلك الحين أن البنات لسن أولاداً على الإطلاق، كنّ يجسّدن سبب الإهمال الذي يتعرّضن له منذ الولادة، عاهة جماعية لا يتحررن منها إلا بإنجاب الذّكور»[7]. الحكاية نفسها تعيدها الكاتبة وبنفس الألم والحسرة ممزوجين هذه المرة ببعض الحنين؛ تقول سلطانة في رواية "الممنوعة" عن عودتها إلى مهد طفولتها-"الصحراء" والمتمثلة في المكان المتخيّل"عين النخلة"-«الآن أحاول التّركيز في المنظر المنساب أمامي. كم سنة سلكت هذه الطريق، مرتين في اليوم؟ صباحا وأنا ذاهبة إلى المتوسطة، ثم مساءً وأنا عائدة إلى عين النخلة عشرون كيلومتر من الفراغ. لم أنس شيئا من هذا الفراغ أيضا. استقامة الخط المزفّت السماء الغاضبة التي تغرق شعرية الرمال، والنخيل الشبيه بعلامات التعجب، تعيس وظمآن باستمرار. السر الأبدي لتلك الأراضي اللينة الواسعة، الممتدة إلى ما لا نهاية، نوبات السعال الاستهزائية التي تطلقها الرياح. وأخيرا الصمت، ثقل خلود متآكل.أتعرف على تلك الكثبان الصغيرة يا لسذاجتي! بشكلها الهلالي، أكتشف الآن بأنها شبيهة بالمهد[....] صفير خافت يسري بداخلي، مرّ وقت طويل قبل أن أدركه، أسمعه، تملكني دبيبه امتلك جوارحي...»[8].

لذلك ترتبط الأماكن والأزمنة في رواية "رجالي" بالتّجربة الشّعورية للكاتبة؛ فزمن الماضي في "الرّواية؛ مقيد بالطفولة إذ تسرد الشخصية وقائع حياتها الماضية؛ وحتى الحاضرة؛ ولكن سرعان ما يتحول حتى الحاضر إلى ماض و«يشكل الزمن في الرواية بعدا إيحائياً ورمزياً، ويعمل على وظيفة دلالية تتوافق مع واقع الحياة من جهة ومع الحالات الشعورية للذات من ناحية ثانية»[9]، فيرتبط "البيت"- وهو أول مكان طفولي-بالعبودية، ويتحول إلى سجن حقيقي يقترن بمشاعر الخوف والحزن؛ فتمثل مغادرته إنعتاقا حقيقيا للساردة.

«...كان الرحيل ومغادرة الدار؛ سعادة بحد ذاتها (...) الانطلاق بالحافلة في السابعة، يفتح الحماس عينيّ على كامل اتساعهما قبل رنين المنبه»[10].

فمليكة "مقدم" لا ترفض "الصّحراء" لمجرد الرفض بل لما تمثله من عادات وتقاليد متحجرة (سطوة الأب، خضوع الأم، تفضيل الذّكور على الإناث؛ إجبار البنات على الزواج في سن مبكرة وحرمانهن من التعلّم) وغيرها من العادات التي تسيء إلى صورة المرأة عموما؛ إنّها بكل بساطة أعراف تعيق حرية الفرد وانعتاقه؛ حتى إن "الصحراء" تتحول إلى عائق نفسي يقلق الشخصية «ينتابني القلق بسبب تلك الصحراء التي لا أجتازها»[11].

تنبعث المشاعر السّلبيّة من البيت؛ فهناك ما نطلق عليه بالأماكن السالبة[12] وهي تلك الأماكن التي ترتبط بالاختناق والحزن مثلاً؛ فسماء "الصحراء" الشاسعة على امتداد البصر تكاد تتحول إلى قفص «...يتراءى لي أن سماء الصحراء لم تعد فضاء يطبق على رأسي، أو يبقيني مقيدة داخل روائح الدار. خارج الدار أتنفس بشكل أفضل و أدرك أنني ولجت نطاقا من الحريات بقلب كل شيء رأسا على عقب (....)لقد اختزلت من أفق الصحراء الأعمى خمسة وعشرون كيلومترا، أياما وأياما خارج نطاق الأسرة »[13] فالتمرد على المكان تمرد على كل ما يمثله من القيم والعادات والتقاليد المتحجّرة«حين كنت أتفحّص ذلك العدم الذي لا يتبدل، ومشاهده المتحجرة التي تحاصر بؤسنا، وشراسة التقاليد، تنتابني أحياناً نوبات من اليأس تكاد تقتلني»[14].

وفي المقابل تقف الأماكن الموجبة، تلك التي تمنح الساردة شعورا بالسعادة، هي أماكن ترتبط بالحرية، فالمدرسة مثلا تمثل فضاء فكرياً وثقافياً، لذلك تصف تنقلها إلى المدرسة بكثير من الفرح «تلك الدروب الصغيرة المستقيمة خارج مفترق مدينة "الصفيح 2"، أعرفها حصاة حصاة، قمم"البرقة" وتضاريسها، تلك التلة التي تنعرج حتى بشار أيضا، أحب ذلك الرواج والمجيء، ذلك التنقل[15]؛ إنه اختراق في تحجر العادات، في المجال الثّابت للصحراء»[16]، وإن كانت الصحراء جغرافيا تتميز بالتغيّر وعدم الثبات، فإنّها متحجرة وشاحبة وجامدة جمود عاداتها وتقاليدها!!

إنّ التجربة الشّعورية والنّفسية للروائية هي ما يعطي للمكان دلالته «ركننا في العالم أنه كما قيل مرارا كونُنا الأول كونٌ حقيقي بكل ما في الكلمة من معنى»[17]، نشعر مع الروائية بعدائية المكان «نسيت أن الرعاية قد تقترن بالموت، كيف أمكنني أن أنسى ذلك؟ لأنني عبرت البحر بلا شك»[18].

ترتبط الصّحراء بقسوة الطفولة وبتلك المعاملة القاسيّة للأب؛ أب يجسد كل أشكال الحرمان «أبي الرجل الأول في حياتي من خلالك تعلمت أن أقيس الحب بمقياس الجراح وأشكال الحرمان»[19] أب يفضل الذكور على الإناث؛ وفي ظل هذه التفرقة نشأت "مليكة مقدم" محرومة من كل حب؛ وظل هذا الشعور بالفقد يطبع كتاباتها «في الطفولة تخامونا الشكوك ولا نعود نثق بأهلنا»[20] و«لا أشعر بالغيرة بل أكتشف الحرمان والتهميش»[21]، هذا الشعور بالغربة يلازمها حتى داخل أسرتها «عندما كنت طفلة في دار أهلي؛ بدأت أشعر بالغربة بسبب العنف والظلم ونوبات الغضب»[22]، بل تذهب إلى أبعد من ذلك إلى حد إقصاء "الأب" من حياتها «يتيمة في أسرة كبيرة العدد»[23].

في ظلّ هذا الصّراع القائم مع الأسرة؛ رفضت "مليكة مقدم" عادات وتقاليد المجتمع الجزائري آنذاك، كما رفضت صورة الأب المتسلط «...وإذا ضربني أبي وحاول أن يزوجني فسأهرب تحت جنح الظلام(....) سأموت عطشا، ستلتهم بنات آوى جسدي، ولكنّي لن أرضخ»[24].

لقد عكست "الصّحراء" كل ما هو سلبي؛ وظلت هذه الصورة تتردد في كل كتاباتها؛ فالصحراء تمثّل الجحيم بعينه «أنسى جحيم الصحراء»[25]؛ والصحراء رمز للحرمان «تلك الصحراء اللعينة رمز لكل أشكال حرمانك ومخاوفك»[26].

كما ترتبط الصحراء بكل القيود التي تحدّ من حرية الكاتبة«هناك في الصحراء لم يكن الأفق سوى الإحتجاز المطلق»[27].

لقد ظلّت "الصّحراء" وبكل ما تمثله حاجزاً نفسيا لم تتخطاه "الكاتبة" حتى بعد انتقالها إلى فرنسا «ينتابني القلق بسبب تلك الصحراء التي لا أجتازها»[28].

لقد اقترنت الصّحراء (بالحرمان والجهل والقسوة والظمأ «هذه حالي منذ الطفولة، منذ الصحراء، ذلك الظمأ، ذلك المؤشر»[29]، ولكن مقابل ذلك كله منحتها القدرة على الصمود والإرادة في مواجهة الحياة؛ لذلك تحدثت "مليكة مقدم" وبكثير من الإسهاب عن الجزائر في فترة التسعينات«لقد لحقت بي القوى الظلامية إلى هنا (فرنسا) وإلى كل أنحاء العالم الغربي»[30]، كما منحتها القدرة على الكتابة «أنغمس في الكتب لأنأى عن محيطي وأعيش البعاد»[31].

فالكتابة كانت سلاحها الوحيد نحو التحرر والانعتاق«حياتي نتاجي الأول والكتابة هي إلهامي المتحرر باستمرار»[32].

وصارت الكتابة سبيلا للتعويض وطريقا نحو النور مقابل صحراء معتمة«سأتعلم أن أضع كتابا بين ما لا يطاق وبيني وأن أجابه عمى أنوار الصحراء بعتمة الكتب»[33]، بل تحولت الكتابة إلى واق من الوحدة «كانت الوحدة مساحة القراءة وزمنها والأحلام وحيواتها المتخيلة، وقد أصبحت الآن مساحة الكتابة وبواسطتها كوّنت نفسي ضد الذوبان في مجموعة وفي انحرافات القومية»[34]، بل صارت الكتابة ملجأها ضد النسيان؛ وضد كل أشكال العنف والحرمان الأسري؛ وضد سلطة الأب الذكورية؛ وضد مجتمع يحاول إقصاء النساء وتهميشهن «في الرابعة أو الخامسة من العمر.شعرت بأن الكلام الذي أسمعه من حولي يعتدي عليّ. فهمت منذ ذلك الحين، أن البنات لسن أولادا على الإطلاق»[35].

كانت الكتابة ومازالت وسيلتها ضد الغياب؛ غياب الأب، غياب ترك فجوة كبيرة في علاقاتها مع كل الرجال «فارقتك لأتعلم الحرية، الحرية في عشق الرجال وأدين لك بأنني لطالما عرفت كيف أنفصل عنهم حتى حين كنت مفتونة ومتدلّهة بهم»[36].

في رواية "رجالي" تتجلى الكثير من الثنائيات المتضادة، فهناك "الصحراء" و"البحر" فضاءان متضادان ولا يمكن فهم "البحر كفضاء أجنبي" له دلالته الثقافية إلا من خلال الصحراء.

2- **الفضاء الأجنبي: "البحر": فضاء للتمرد وطريق للخلاص:**

في مواجهة القسوة والحرمان؛ يقف الحب كطريق للانعتاق؛ الحب يلونه الأخضر ضد صحراء صفراء وقاحلة؛ تتحدث "مليكة مقدم" عن زوجها الفرنسي (جون-لوي Jean louis) « سافرنا معاً بالسيارة إلى سويسرا، والنمسا والساحل الأدرياتكي وتريسيني والبندقية ومنطقة البحيرات؛ انتشيت عشقًا وخضرة، الحب أخضر.إنه نار خضراء؛ أخضر تحت سماوات متلبّدة؛ منبهرة تنساب مع حرائقها، من العشب الطري إلى الدغل الأكثر قتامة، تشبع إمبراطورية اليخضور وسط توهجات الغرام»[37].

يقف"البحر" كفضاء أجنبي بكلّ دلالاته الثقافية والحضارية ليمثل "الآخر" [38] بكل أبعاده الإنسانية والوجودية والثقافية ليناقض "الصّحراء" وما تمثله من قيم سبق وأن تحدثنا عنها.

يقترن "البحر" بشخصية (جون –لوي) "زوج الروائية" وعبره تكتشف "البحر" ومساحات الحرية اللامحدودة . «يواصل "جان –لوي" التنزّه في الحياة، ينزهني براً وبحراً(...) وهذا ما ينسج ذلك الرابط القوي للغاية بسبب تلك الرحلات المخططة؛ المعدة بشهوانية، تختزل انفصالاتي(...) وأكثر منها كذلك تلك المقررة بدون تخطيط مسبق(...) نزولاً عند إلحاح اختبار الإحساس بالحرية(...) كل ما افتقرت إليه في الجزائر والصحراء إلى حد الاختناق»[39].

يمثّل "جون –لوي" "الآخر" بكل قيمه الحضارية والثقافية؛ ويولد نسقاً ثقافياً مختلفاً عما عهدته "مليكة مقدم"؛ فلقد كان "جون-لوي" طريقها إلى التمرد والتحرر. عبر الحب؛ بل كان حضوره يطبعُ المكان «في الصيف التالي، كانت الرّحلة البحريّة توجهنا أولا إلى أجاكسبيو، ثم جزيرة تافولارا، في اليوم التالي، شمال شرق سردينيا(...) بلغت الشاطئ مذهولة بفضل الجهد والفرح(...) اقترب "جان –لوي" لمعانقتي. كانت الأمواج المحتضرة تلحس جسدينا(...) نظرت إلى المركب البعيد، وقلت: جان-لوي: «لقد فعلتها، لقد عبرت البحر! لم يعلم أنني أفكر بالأم بدل البحر !»[40].

لقد صار "جون-لوي" المكان الذي تنشده الساردة« روضني ذلك الرجل، وأنقذني من اليأس، كان حاضرا في كل الظروف بدء من المداعبة وصولا إلى الدعم المادي، لشدة ما غمرني برعايته واهتمامه نجح أخيرا في إقناعي بأن بلده أصبح بلدي»[41].

لقد اقترنت شخصية "جون-لوي" بفرنسا عامة والبحر خاصة؛ حتى أنّ "مليكة مقدم" سمته "رجل الإبحار" . وفي الرواية يتحول "البحر" إلى فضاء مفتوح على الحرية والانعتاق؛ وغالبا ما كان يقترن بمغامرات الحب«الجسد، جاذبية شخص أجنبي بمثابة المشارف الأولى للمنفى، المنفى الخلاصي. الآن بت مقتنعة أن وحدهم الرجال القادمون من بعيد من أرض أخرى، بوسعهم أن يساعدوني على التحرر نهائيا من البلبلة الجزائرية ولا علاقة لذلك إطلاقا بتوق إلى الإكزوتيكية، بل إنها قبل كل شيء حاجة للهروب من الاستنطاق، والقسوة، والتمييز والغباء

والقمع الذي يمارسه المألوف، والتصاقي بالعادات ومحاكاة الجماعة–المرور بالغريب كما ينخرط المرء في المقاومة السرّية– لإنقاذ نفسي، للاهتداء إلى سبيلي»[42].

يصبح المنفى كفضاء أجنبي سبيلاً للخلاص؛ وطريقا لتحرر "الجسد" من كل القيم المهترئة المرتبطة "بالصحراء" وحتى بحضور "البحر"؛ تتذكر "مليكة مقدم" دوماً "الصحراء" «هناك في الصحراء لم يكن الأفق سوى الاحتجاز المطلق». ولا يمكن فهم "البحر" كفضاء للحرية إلا عبرها «البحر والصحراء(...) أذيبهما وأخلطهما في صورة واحدة. جرح حريتي المضيء»[43].

حينما نقرأ الرّواية كلّها؛ نشعر أن "مليكة مقدم" ترسم كل مكان على حدة؛ وأن كل واحد منهما يعادي الآخر؛ إلاّ حين تختبر الروائية تجربة الكتابة والحب؛ يصبح من الصعوبة الفصل بينهما؛ كنوع من النوستالجيا والمصالحة مع الذات !.

«كم من المداعبات والرحلات البحرية للتوصل إلى الإدراك بأن حاجتي إلى فضاء المتوسط من أجل التنفيس تأتيني بالتحديد من الصحراء؟ أبحث عنها خفية عبر الأحاسيس التي تمنحني إيّاها، عبثا سخرت من نفسي بهدوء؛ لا، لن تسترسلي أنتِ ! أيضا في الحنين ! ستكون الطامة الكبرى لو تتحول تلك الصحراء اللّعينة، رمز كل أشكال[44] حرمانك ومخاوفك إلى أكثر ما تفتقرين إليه، ولكن لا فائدة، فمهما فعلت، لو أمسكت بالدفة(...) لو نظرت إلى البحر، وتفحّصت الخط يتعانق مع السماء لا أستطيع أن أمنع الصحراء من الحلول محله»[45].

إنّ الانتقال إلى الضفة الأخرى غيّر نظرتها إلى الصحراء، لم تعد الصحراء قاحلة، صارت "بحراً" «تنبسط الصحراء على صفحة الماء، تسيل مثلما لم أشاهدها من ذي قبل؛ معتّقة من البؤس والتقاليد. أخترعها ليتسنى لي أخيرا أن أنفر عبابها، مطولا قبل كتابتها؛ ولكن تلك السنوات من الإبحار والاجترار كانت في الأصل كتابة. كانت الاستحضار في ذاكرة الطفولة التي ظلّت جاثمة هناك على ضفة بحر من الرمال، في ذلك الحرمان العاطفي الذي يقطع أنفاسها ويعمي السماوات»[46]، ثم إنّ حضور "الصحراء" مرتبط بقدرة الروائية على العودة إلى الماضي؛ عبر ذكريات الطفولة، إنها نوستالجيا مرتبطة بالمكان.

3–البعد الوجودي للصّحراء:

هذا اللّقاء الإنساني مع "الآخر" في تجربة الحب، تذوب الفوارق وتتلاشى الأماكن كما تتوحد الأرواح، تتوحد الأماكن «...أمام انبهاري الشديد وددت لو أطيل مدة الرحلة البحرية، وأتذوق حتى النشوة تلك الأوديسات الزرقاء التي وتحملني وتهمس[47] لي بأحلام الأرض، إنني زرقاء في عرض البحر، أنا الله في هذه الصحراء السائلة، ذلك القلب الخافت بين ضفتي رهافة أحاسيسي. أنا ذلك الانسياب»[48] تشبه هذه التجربة تجربة الصوفي لحظة التجلّي «أنا الله في هذه الصحراء السائلة»[49]، فالفضاء هنا يحمل بعدا وجوديا؛ وموقفا من الحياة؛ أي بالأحرى يحمل معنا فلسفيا «ويبدو الفضاء الطاغي مهيمنًا في الرّوايات الحديثة، فهو يذكي الحقد أحيانا، كما يذكي الثورة أحيانا أخرى في قلب الشخصية، كما هو الشأن على سبيل التمثيل في رواية جوليان

غرين « Adrianne mesurât » أو في رواية موريالك« Théières Desqueyroux » ، وقد يذكي القلق إزاء الغرف المحظورة، كما في قصص بورخيس، بالإضافة إلى هذا التفكير النفسي يحمل الروائي هذا النوع من الفضاء بعدا فلسفيا»[50] إنه فضاء لاكتشاف الذات واختبار لمشاعر جديدة «لا قيمة لحياة بلا حرية وأن هذه الحرية تمر عبر المعرفة والعمل والاستقلالية المادية »[51].

إنّ "البحر "يختزل تجربة الكتابة يعبر عن موقف الكاتبة من الحياة نسميها "الرؤيا"، لذلك عادة ما تقترن أماكن الكتابة به كمصدر للإلهام والإبداع «حين يصحو الطقس في عرض البحر، أنصرف للكتابة وينصرف جون–لوي للقراءة»[52].

في رواية "رجالي" لملكية مقدم؛ نتتبع هواجس الطفولة وذكرياتها؛ وهاجس التوق إلى الحرية «في خاتمة أحد النصوص التي كتبتها أثناء الإبحار، البحر، الصحراء الأخرى، أقول: «أذيبهما وأخلطهما في صورة واحدة.جرح حريتي المضيء»[53] وهذا الإبحار كله هو إبحار في الذات «فارقتك لأتعلم الحرية في عشق الرجال وأدين لك بأنّني لطالما عرفت كذلك أن أنفصل عنهم حتى حين كنت مفتونة ومتدلهة بهم»[54].

في البداية تعود بنا "السّاردة" إلى زمن الطفولة، عبر ذكرياتها إلى الصّحراء في عنوان اختارته (الغياب الأول)، وهو غياب الأب، وعبر السرد تتقدم إلى الضفة الأخرى (فرنسا)؛ إلا أن تصل إلى النهاية، في عنوان سمّته (الحب العتيد)، لتعود بنا ثانية إلى الصحراء، فالفضاء دائري، وكأنّها لم تغادر المكان؛ فالمكان يسكنها « كان لديّ الانطباع الغريب بأن فتاة صغيرة من الصحراء تتنزه في حديقتي، وفي سباتي سيأتي الحافل بالهلوسات»[55].

الخاتمة:

وممّا يمكن قوله أن "الفضاء" في هذه الرّواية يحمل عدّة دلالات وأبعاد نفسية ووجودية وثقافية؛ يتعلق بتجربة الروائية الشعورية، فالفضاء حي يحمل خيبات مليكة مقدم وانتصاراتها وموقفها من الحياة. ف"الصحراء" قاحلة وباردة وجاحدة لأنها ترتبط بقساوة الطفولة وبكل أشكال الحرمان وبمجتمع ذكوري يقصي النساء ويهملهن ويبقيهن على الهامش، إنها بكل بساطة "صحراء" ترتبط بكل عادات وتقاليد المجتمع المهترئة.

و"البحر" يمتد إلى الضفة الأخرى ليبرز "الآخر" بكل أبعاده الإنسانية والحضارية المرتبطة بالحرية، حرية تمتد من "الجسد" إلى الكتابة، عبر الحب لتكتشف "مليكة مقدم" ذاتها.

الهوامش:

* ترجمة شخصية:

« …L'écriture est le nomadisme de mon esprit dans le désert de ses manques sur les pistes sans autre issue de la nostalgie, sur les traces de l'enfanee que je n'ais jamais eue »

[1] Nadjib Redouane,yvette Bera yown szmidath et Robert El Baze :Malika Mokeddem , Paris,L'Hharmattan,2003,P352.

[2] Longau Shahrazade :violence et rébellion chez trois romancières de l'Algérie contemporaine (Maïssa bay Malika Mokeddem –Leila Merouane),Univ otawa, 2009,P114.

[3] مليكة مقدم: الممنوعة، ترجمة: محمد ساري، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، 2008، ص7.

[4] عبد الله شطاح: نرجسية بلا ضفاف، التخييل الذاتي في أدب واسيني الأعرج، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر العاصمة، 2012، ص6-9.

[5] رينيه ويليك وواسطن وارن: نظرية الأدب، ترجمة: محي الدين صبحي، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ص179.

[6] صلاح صالح: قضايا المكان في الأدب المعاصر، ط1، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994.

[7] مليكة مقدم: رجالي، ترجمة: نهلة بيضون، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2007، ص12.

[8] مليكة مقدم : الممنوعة، ص13.

[9] صالح ولعة، عبد الرحمن منيف: الرؤية والأداة، عالم الكتب الحديث، إربد: الأردن، دط، 2009، ص7.

[10] مليكة مقدم: رجالي، ص30.

[11] المصدر السابق، ص32.

[12] حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ط2، المركز الثقافي-العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص40-41.

[13] مليكة مقدم: رجالي، ص31.

[14] المصدر السابق، ص31.

[15] المصدر السابق، ص31.

[16] المصدر السابق، ص31.

[17] ينظر: غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984، ص60.

[18] مليكة مقدم: رجالي، ص110.

[19] المصدر السابق، ص166.

[20] المصدر السابق، ص14

[21] المصدر السابق، ص23.

[22] المصدر السابق، ص98.

[23] المصدر السابق، ص144.

[24] المصدر السابق، ص26.

[25] المصدر السابق، ص27.

[26] المصدر السابق، ص124.

[27] المصدر السابق، ص192.

[28] المصدر السابق، ص149.

[29] المصدر السابق، ص21.

[30] المصدر السابق، ص182.

[31] المصدر السابق، ص33.

[32] المصدر السابق، ص137.

[33] المصدر السابق، ص230.

[34] المصدر السابق، ص230.

[35] المصدر السابق، ص312.

[36] المصدر السابق، ص20.

[37] المصدر السابق، ص80.

[38] P.Brunel et Yves Chevrel :Précis de littérature comparée, PUF ,Juillet 1989,PP145-146.

[39] مليكة مقدم، رجالي، ص134.

[40] المصدر السابق، ص 123-133.

[41] المصدر السابق، ص 96.

[42] المصدر السابق، ص 47.

[43] المصدر السابق ،ص 149.

[44] المصدر السابق ،ص72.

[45] المصدر السابق ،ص72.

[46] المصدر السابق ، ص138.

[47] المصدر السابق ، ص134-135.

[48] المصدر السابق، ص134-135.

[49] المصدر السابق، ص140.

[50] ج.جنيت: الفضاء الروائي، ترجمة: عبد الحريم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص120-121.

[51] مليكة مقدم: رجالي، ص140.

[52] المصدر السابق، ص148.

[53] المصدر السابق، ص148.

[54] المصدر السابق، ص20.

[55] المصدر السابق، 243.

مصادر البحث:

1. مليكة مقدم: رجالي، ترجمة: نهلة بيضون، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2007.
2. مليكة مقدم: الممنوعة، ترجمة: محمد ساري، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، 2008.

قائمة المصادر والمراجع:

3. حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ط2، المركز الثقافي-العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000.
4. ج.جنيت: الفضاء الروائي، ترجمة: عبد الحريم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2007.
5. رينيه ويليك وواسطن وارن: نظرية الأدب، ترجمة: محي الدين صبحي، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981.
6. صالح ولعة: عبد الرحمن منيف: الرؤية والأداة، عالم الكتب الحديث، إربد: الأردن، دط، 2009.
7. صلاح صالح: قضايا المكان في الأدب المعاصر، ط1، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994.
8. عبد الله شطاح: نرجسية بلا ضفاف، التخييل الذاتي في أدب واسيني الأعرج، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر العاصمة، 2012.
9. غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984.

10. Longauon Sharzéd :violence et rébellion chez trois romancières de l'Algérie contemporaine (Maïssa bay -Malika Mokeddem –Leila Merouane),Univ otawa, 2009.
11. Nadjib Redouane, yvette Bena-youm s-zmialth et Robert El Baz :Malika Mokeddem ,Paris, L'Harmattan,2003.
12.P.Brunel et Yves Chevreul :Précis de littérature comparée, PUF ,Juillet 1989.